ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://www.iasj.net/iasj/journal/419/issues
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها كلية الفارابي الجامعة

الاغتراب النفسي في شعر السري الرفاء (دراسة في نماذج مختارة)

م.م. نوره غزاي علاوي
شهد جمعة محمد

Psychological alienation in the poetry of Sari Al-Rifa'i (study of selected samples)

مستخلص

جاء هذا البحث الموسوم بـ (الاغتراب النفسي في شعر السري الرفاء_ دراسة في نماذج مختارة_) وهذا من خلال رصد الاغتراب النفسي عند الشاعر بوصفهِ ظاهرة حصلت منذ القدم، وأثره في التشكيل النفسي للنصوص الشعرية، وذلك من خلال تجسيد من ظاهرة الاغتراب مظاهر عدّة كالآلام والمعاناة , إذ يستعين الشاعر بما ترفده له اللغة من عبارات ذات طابع نفسي تشكّل القسم الأكبر من مشاعر الشاعر التي يبين فيها حقيقة هذه التوترات العاطفية الجياشة معبراً عنها بانفعالات ناتجة من أزمات نفسية.إنَّ الاغتراب بوصفة ظاهرة نفسية ذاتيه فكرية، ومن ثم بعد ذلك تعد ظاهرة اجتماعية ثقافية مستندةً إلى تنافر الذات لدى الشاعر والآخر والطبيعة، ومن ثم إلى النشاط والعمل والمكان والزمان من جهة أخرى، وهذا جعلها ظاهرة معقّدة ومركبة تدل عن الاستلاب والانسلاخ، وهذا بدوره يؤدي إلى ضعف قدرة المغترب على التكيف من جهة، وعلى التميز والتفرّد والاختلاط من جهة أخرى.كلمات مفتاحية: أدب، الاغتراب، الغربة، الاغتراب النفسي.

Abstract

This research, which we labeled as "Psychological Alienation in the Poetry of Al-Sari Al-Rifaa - Selected Models," aims to observe psychological alienation in poetry as a phenomenon that has occurred since ancient times and its impact on shaping the psychological aspect of poetic texts. The poet embodies various aspects of alienation such as pain and suffering by utilizing language expressions with a psychological nature, which form the majority of the poet's emotions, expressing the reality of these intense emotional tensions through reactions originating from the core of the title .Alienation is a psychological, self-mental phenomenon, and then it becomes a social and cultural phenomenon based on the conflict between the self, the poet, the other, nature, activity, work, place, and time, making it a complex and intricate phenomenon indicating detachment and shedding, leading to the expatriate's weakened ability to adapt on one hand, and to excel, stand out, and mix with others on the other hand.Keywords: literature ,alienation, estrangement, psychological alienation

المقدمة

إنَّ الاغتراب قديم بقدم الإنسان، متعمّق بمواقفه من الذات والمجتمع والحياة، وكذلك الأنشطة المتنوّعة في هذا الكون الواسع، ويظهر هذا في صميم معانات الشاعر الذاتية، وابتعاده عن الجوهر الطبيعي تكمن أهمية البحث الموسوم بـ (الاغتراب النفسي في شعر السري الرفاء_ دراسة في نماذج مختارة) من الموضوعات المهمة، فالاغتراب يولد لدى المتغرب، عندما يمرُّ بحالة معينة أو إلى الشعور بالحنين إلى الوطن، وإلى مراقد الصبا التي بنا فيها هواجسه ومخيلاته التي تعود عليها، وحفظ إطلالاتها ودلالاتها في نفسه بعمق، مما تدفع النفس إلى الشوق المنهال إلى تلك البيئة التي عاش في أكنافها، وتربى بين طيات أرضها، ومجتمعها.لكي يكون البحث مستوفي

شروطه جاء بمقدمة وخمسة مطالب وخاتمة ومن ثم هوامش البحث التي ضمَّت المصادر والمراجع التي قامت عليها الدراسة تطرقنا عن الاغتراب في المفهوم والمصطلح، وثم تكلمت عن الفرق بين الغربة والاغتراب، وأشرنا بإطلالة على المنهج النفسي، ونهاية نماذج مختارة من شعر السري الرفاء.

المطلب الأول: الاغتراب في المفهوم والمصطلح:

الاغتراب من مفهوم للغةًجاءت لفظة الاغتراب في المعاجم العربية بدلالات عدَّه، لتدل في معناها على غربة المكان، وهي البعد عن الوطن الذي ولد فيه المتغرب وعاش في كنفه، قال الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ) في معجمه بأنَّ: "الغربة: الاغتراب من الوطن، وغرب فلان عنا يغرب غربا أي تنحى، أغربته وغربته أي نحيته. والغربة: النوى البعيد، يقال: شقت بهم غربة النوى" [1]كما ذُكرت عند ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) فقال: "والغربة: البعد عن الوطن، يقال: غربت الدار. ومن هذا الباب: غروب الشمس، كأنه بعدها عن وجه الأرض. وشأو مغرب، أي بعيد. قال:

أعهدك من أولى الشبيبة تطلب *** على دبر هيهات شأو مغرب[2]

ويقولون: (هل من مغربة خبر)، يريدون خبرا أتى من بعد .[3]وقال عبد القاهر الرازي (ت: ٦٦٦هـ): "(الغربة الاغتراب) وتقول: (تغرب) و(اغترب) بمعنى فهو (غريب) و (غرب) بضمتين والجمع (الغرباء)، والغرباء أيضا الأباعد، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه"[4]، والتغريب: النفي عن البلد. و(أغرب) جاء بشيء غريب. وأغرب أيضا صار غريبا.[5] وهي عند ابن منظور (ت: ٧١١هـ): "النزوح عن الوطن: والاغتراب والتغرب كذلك؛ تقول منه: تغرب، واغترب، وقد غربه الدهر. ورجل غرب، بضم الغين والراء، وغريب: بعيد عن وطنه؛ الجمع غرباء، والأنثى غريبة"[6]، وكذلك وأغرب الرجل: صار غريباً، ورجل غريب: ليس من القوم.[7]في ضوء ما تقدَّم أنَّ معنى الاغتراب بمعناه اللغوي لم يخرج عن دائرة البعد والنزوح عن الوطن، فهي دلت على الغربة المكانية أو الجغرافية من جهة، ومن جهة أخرى دل الاغتراب على الغربة الاجتماعية، وهي أن الانسان يعيش في بلد؛ ولكنه يعاني من اغتراب نفسي ذاتي وازمات نفسية وصراع داخلي.

الاغتراب في الاصطلاح:إنَّ هذا المصطلح يعود إلى القدم، وتعود بدايته إلى بداية ظهور الإنسان، فالاغتراب هو "انحلال الرابطة بين الفرد والمجتمع، أي العجز المادي عن احتلال المكان الذي ينبغي للمرء أن يحتله وشعوره بالتبعية أو بحس الانتماء إلى شخص أو إلى آلة أخرى، فيصبح المرء مرهوناً له_ لها بل مستلباً، وهذا ما يولد شعوراً داخلياً بفقدان الحرية والإحباط والقلق القادم"[8] وكذلك الاغتراب فقدان القيم والمثل الإنسانية، ومن ثم الخضوع لواقع اجتماعي يتحكم فيه الإنسان ويستعبده حينئذ، يشعر الإنسان بالانفصال والانعزال عن الآخرين وحتى عن ذاته التي هي جزءاً منه[9]، وقيل الاغتراب شعور متأزم مصاحب بالقلق والحزن، وهو لا ينتاب المرء من حين لآخر، وإنَّما هو حالة مصاحبة باستمرار تزداد قوة أو ضعفاً فيبعض الأحيان، ولكنها حالة لا تفارقه، وهكذا يحس الفرد بالانفصال عن الواقع والذات، فتحدث له ثورة داخلية تدفعه إلى الرفض والتمرد، والانسلاخ والبعد.[10] والاغتراب عند أفلاطون هو "الذي اغترب عن أخلاقيات عصره ومجتمعه ودعا إلى إقامة جمهورية فاضلة يحكمها الفلاسفة حتى يتحقق العدل، فكان يقصد بالاغتراب ابتعاد الإنسان عن عالم المثل، وعيشه في عالم أرضي طارئ بدون إرادته"[11]، وماركس أعطا ظاهرة الاغتراب بعداً مادياً، وربط الاغتراب بصور عديدة منها: تاريخية، وسياسية، واجتماعية.[12]ويعد الاغتراب مصطلح ثري مثير للجدل لكثرة التعريفات التي وضعت له، حتى أخرجه بعض الباحثين من مضمونه الجوهري[13]، فهو عند علماء النفس معنىً، وعند علماء الاجتماع معنىً آخر، وعند الفلاسفة له معنى مختلف، فهو مصطلح قد يعتر به الكثير من الغموض، ومن الصعب تحديد تعريف دقيق له.ومما سبق يتضح لنا أنَّ الاغتراب بمعناه عند الاصطلاحيين يعتبرونه لصيق ومزامن للفرد، وهذا ما يخلف عند المغترب الشعور بالرفض، وكذلك عدم الرضا الذي قد يعيشه الفرد، ويقف عنده في علاقته بمجتمعه.الفرق بين الغربة والاغتراب: إنَّ هذان المصطلحان يأتيان بمعنى قريب من بعضهما، وهو الذهاب والتنحي عن الناس، فيمكن القول إنَّ الفرق بينهما تكمن بأنَّ الغربة تكون لأسباب قاهرة وجبارة، وكذلك أسباب خارجية، إذ ترتبط في الغالب بمعايشة الفرد لمكان غريب، أو بعدم التكيف الاجتماعي والنفسي مع المجتمع الذي يعيش فيه،

لذا فهي التنأي والابتعاد عن الوطن.أمَّا الاغتراب فيقع بإرادة الإنسان واختياره طوعاً لا كرها، فالاغتراب افتعال الغربة، والخروج على القيم والأعراف والتقاليد التي يؤمن بها المجتمع، وكذلك عجز عن التأثير في المجتمع وصنع قراراته.[14] وقد فرق الدكتور شاكر نوري بين الغربة والاغتراب في قوله: "الغربة تعني الشعور بالابتعاد المكاني عن الوطن والاحساس بالغربة بسبب المسافة التي تفصل بين الإنسان عن مجتمعه ومعارفه وعالمه، أمَّا الاغتراب فيختلف عن الغربة اختلافاً جوهرياً إذ يعني فقدان القيم والمثل الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعي يتحكم في الإنسان ويستبعده حينئذ يشعر الإنسان بالانفصال والانعزال عن الآخرين وحتى عن العالم ذاته".[15]وأيضا ذهب الدكتور عبده بدوي في التمييز بين هذين المصطلحين بقوله: "فالغربة تمثل النزوح في سنوات تقترب من الثلاثين عاماً؛ أمَّا الاغتراب يمثل نزوحاً من نوع آخر، حتى لوكان الإنسان يعيش في الوطن، فهو يرفض أشياء ويتحداها، ويختلف مع أكثر من أسلوب ليسيطر على الحياة وإذا كان في بعض الأحيان لا يملك إلَّا الصمت فإنَّه في أحيان أخرى لا يملك إلَّا الصراخ أو يبوح أو يئن مع شعوره بأن العالم لا يحس به، ولا يسمع أنينه".[16]إنَّ المغترب يكون أكثر إدراكاً للواقع الذي يعيش فيه، ويبحث إلى تغيير واقعه الجديد إلى ما يناسب فلسفته ورؤيته تجاه الحياة والأحياء التي سكن فيها، وهذا يدفعنا إلى قول بأنَّ كثيراً من الناس قد تعيش الغربة في مقابل أولئك الأدباء والمفكرين والمثقفين الذين يعيشون في حالة اغتراب، من هذا يتضح أنَّ: الشعور بالغربة نهايته محسومة بنهاية المدة الزمنية التي يقضيها، وكذلك تقاس باقتراب المسافات.[17] أمَّا الاغتراب فعكسه إذ لا يمكن تقديره بوقت أو مسافة، فهو كالمرض المتغلغل في ذات الإنسان وأفكاره، فلا يحتاج الى الرحيل بعيداً أو أن يكون غريباً، لأنَّه غريب في مكانه ونفسه، وكل اغتراب يولد غربة، وليس كل غربة تولد اغتراباً؛ لأنَّ الغربة تستقي من الاغتراب لوناً من ألوانها التي تتجلى في الغربة المعنوية في الخروج على مبادئ الناس وأعرافهم، وتصوير حالة الغريب الذي يعاني من الاغتراب في أنماط مختلفة.[18] ونلخص القول بأنَّ الاغتراب شعور نفسي أو حالة داخلية في ذات الإنسان أو الفرد، إذ تعد ذات معنى شمولي، وهذا يعني أنْ تراود الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، وأسبابها متعدّدة ومتنوّعة، ولا تقتصر على سبب واحد، وتبعاً لذلك، فإن مفهوم (الاغتراب أوسع وأشمل وأعمق من مفهوم (الغربة) التي هي مكانية نزوحيةاطلالة على المنهج النفسي: تعد العلاقة بين المنهج النفس والأعمال الفنية عامة والأدبية على وجهي الخصوص ذات علاقة مباشرة؛ وإنَّ كان التحليل النفسي هدفه الرئيسي هو الولوج إلى عالم الفرد الداخلي، وهذا بهدف استخدام بيانات العقل الباطن اللاوعي لشرح سلوكيات الفرد الداخلية، ومن ثم والعمل على تحديد نقاط الخلل السلوكي وشرح مواقف نفسية له، نجد أنَّ المنهج النفسي للأدب يسعى نحو التطرق إلى أغوار النفس الأدبية لتتبع الحالة النفسية للأديب، وكذلك انعكاس هذه الحالة على العمل الذي ينتجه إنَّ علم النفس بوصفه علماً تطبيقياً "يمثل آلية من خلالها يحاول الشاعر فهم المشاعر والسلوكيات والأفكار التي تمكن الناس وتدفعهم نحو تصرف ما ورؤيته لواقعه دون الانفصال عن بيئته"[19]، ولما كانت نقطة التي يبدأ عندها المنهج النفسي تشير إلى أنَّ الوعي ليس فقط الجزء المرئي؛ ولكنه أيضاً الجزء غير المرئي، فالإنسان لا يمثله وجود مادي فقط، بل أن لديه عالم داخلي يتجاوز في تأثيراته ما يحدثه مظهرة الخارجي، فهو كما يرى يونغ عندما يكتشف روحه ويواجه غرائزه، يبدأ في التعرف على ذاته.[20]ويقول (فرويد) إن التحليل النفسي أو المنهج النفسي للأدب "يكشف عن اللاشعور/ اللاوعي في الأخير والنص الأدبي يقوم بالكشف عن المكنونات النفسية لصاحبه، فاللاوعي الغير مرئي، يعد مصدرًا لكل الأفكار الخفية، وما يتحرك في اتجاه معاكس للمنطق، يمتلئ بالمتناقضات فيمثل كل الرغبات المكبوتة" .[21]إنَّ اللاوعي في المنهج النفسي ينجلي من خلال قراءة فاحصة عبر استنطاق دلالات النص التي عبر بها الشاعر أو الأديب، والبحث عن دوافعها، وتصنيفها طبقا لتاريخ نشأتها، ومن ثم يتحقق من هذا الكشف عن المدلولات الكامنة في نفس الشاعر، إذ يظهر من وراء الكلمات، وغاياتها في اللاوعي.وإنْ كان (فرويد) قد وضع الأسس الأولى لفكرة التحليل النفسي للأدب، لا يمكن إغفال دور –(جاك لاكان) الذي أقر بتأثره بالنظرية الفرويدية – في وضع منهج التحليل النفسي الأدبي بعدما قام بعقد صلات بين الدال والمدلول والعلوم اللسانية من جهة، وبين أنساق ما قبل الشعور اللاوعي من جهة أخرى،.[22]وانصب اهتمام (جاك) في المقام الأول على فكرة اللغة فالأدب الذي يمثل خلقا إبداعيًا مادته اللغة ومصدره الخيال، تلك الأداة التي تستخدم التنظيم اللاوعي عبر مفردات مكتوبة .[23]لذا فاللغة نفسها عند (جاك)، هي الحلم في حالة تكثيف، وإزاحة، أي المعبر الحقيقي عن اللاوعي[24]، وهذا ما يتفق مع

رأي (جان بيلمان نويل) في قوله: "إنَّ القصيدة في لغتها الذاتية تعرف أكثر من الشاعر"[25]، وعلى هذا النحو فإنَّ التحليل (جاك) – إن جاز التعبير – يرتكز على اللغة الفعلية للعمل الأدبي، بمفهوم آخر، يصبح النص حياً وله عقله ونفسيته الخاصة به، أي أنَّ التحليل النفسي لـ (جاك) تحليل نصي وجزء من البناء الفني الرسمي للعمل الأدبي.[26]وقد لجأ (فرويد) إلى استخدام الأدوات النفسية التحليلية – السريرية في محاولة منه لكشف الإبداع والوقوف على الموهبة الفنية[27] داخل اللاوعي الفردي للأديب، إلَّا أن هذا الرأي خالفه فيه تلميذه الآخر (كارل يونغ)، الذي رأى "أنَّ الخيال لا يعتمد على اللاوعي الشخصي للمرء في حد ذاته، ولكن على الأساطير اللاوعية التي تشكل الجانب الأكبر من اللاوعي الجمعي الاجتماعي"[28]، أي أن الأديب يستمد لاوعيه الذاتي عبر تأثير اللاوعي الجمعي الموروث جينيا الممتد عبر تأثيرات عدة كالأساطير والطقوس الدينية والتاريخ.[29]إنَّ القراءة النفسية للنص الأدبي – كما يرى (تري إيغلتون) تعني في المقام الأول بتحليل الجوانب النفسية للذات المكونة للعمل الأدبي ما بين ذات الأديب، أو شخوص العمل الأدبي، أو من خلال استقراء دلالات ما وراء النص [30]، فـ "النص الأدبي مشبع بتلك المكنونات النفسية التي تمهد الطريق في أن يجعله مركزا لقراءات نفسية خالصة" [31]إنَّ التحليل النفسي للأدب يسعى إلى التطرق إلى أغوار النفس الأدبية لتتبع الحالة النفسية للشاعر، وانعكاس هذا العمل على نتاجه الشعري.[32]إنَّ شاعرنا أحد الشعراء الذي أثر الاغتراب على نفسيته، وظهر هذا من خلال أشعاره من خلال الشوق إلى الديار، وإلى مدينته الموصل الذي تربى في أكنافها، وإلى الصراع الداخلي_ الذاتي الذي كان يراوده نتيجةً لحالة الشاعر النفسية، والمتعودة.

المطلب الثاني: نماذج مختارة من شعر السري الرفاء:

إنَّ الشعراء منذ القدم اهتموا بظاهرة الغربة والحنين، إذ رافقت هذه الظاهرة شعرهم على مرِّ العصور، ويعبر الشاعر عما يختلج في نفسه، وعما يعانيه من ألم، وحزن عميق سببه فراق الأهل والأحبة والأصدقاء، وبعده عن الوطن، وبين هؤلاء الشعراء السَّرى الرفاء الموصلي، فقد ارتبط مفهوم الغربة عنده بسعة المسافات، والحقب الزمنية، أمَّا الاغتراب فهو منفك عن هذا الارتباط؛ لأنَّه يشعر بأنَّه غريب بنفسه ومكانه.وفيما يلي سنعرض بعض النماذج الاغترَّابية التي وظفها السري الرفاء: إذ يقول في رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الموصل [من المتقارب] :[33]

أَبا الفَتْحِ رُحْتَ بِوَجْهِ وَقَاحٍ *** تُحاوِلُ سَلْمِي بِجَهْلٍ صِرَاحِ

حَلَقْتَ سِبالَكَ جَهْلًا بِمَا *** يُوارِي مِنْ العَوَرَاتِ القِباحِ

فَعَذَّبْتَ صَحْبَكَ حَتَّى المَساءِ *** وعَذَّبْتَ عِرْسَكَ حَتَّى الصَّباحِ

فلا يَبْعُدَنْ مِنْكَ ذاكَ السِّبالُ *** فقدْ كانَ سِتْراً على مُسْتَرَاحِ

إنَّ الشاعر من خلال شخصية (أبا الفتح) نلمس أنَّه حس بالاغتراب، فإن هذه السمة التي من خلال الشخصية يمكن من شأنِّها أنْ تحقق الاغتراب، إذ جاء الشاعر بعبرات تدل على اغترابه كـ (رحت بوجه، يواري، يبعدن)، فهذه العبرات من شأنِّها أن توحي على اغتراب الشاعر وشوقه إلى مدينة الموصل والارهاصات النفسية التي كان يُعاني منها انذاك، وذلك من خلال وصف الشخصية التي انتقدها في نصوصه الشعرية، الأمر الذي يؤدي إلى تركيب اغترابي نفسي داخلي لدى الشاعر، فيغدوا هذا التركيب سمة عامة فيه.

وفي موضع آخر يتشوق إلى المَوْصِلَ، ويَذْكُرُ خَرابها إذ فيقول:[من الطويل]:[34]

أَقولُ لِحَنَّانِ العَشِيِّ المُغَرِّدِ *** يَهُزُّ صَفيحَ البارِقِ المُتَوَقِّدِ

تَبسَّم عنْ رِيِّ البِلادِ حَبيُّه *** ولمْ يَبْتَسِمْ إلَّا لإنجازِ مَوعِدِ

على الشَّرَفِ المَعْمُورِ بالعُمْرِ فَالرُّبا *** فَتِلْكَ الثَّنايا فالطَّريقِ المُعَبَّدِ

فَسُودِ اللّيالي من بَنِيَّةِ جَعْفَرٍ *** فَدِمنةِ آثارِ الخَلِيفةِ أَحْمَدِ

بصَفْحَةِ مَصْقُولِ الأَديمِ كأَنَّما *** سَفَائِنُهُ رُبدُ النَّعَامِ المُشَرَّدِ

شَوائلُ أذنابٍ يُخَيَّلُ أَنَّها *** عَقَارِبُ دَبَّتْ فَوقَ صَرْحٍ مُمَرَّدِ

فَمَشْهَدُ عَمْرو حيثُ يُلْعَنُ ظَالِمٌ *** ويُبكى على مظلوم آلِ مُحَمَّدِ

محلُّ الهَوَى العُذْرِيِّ فِي خَيْرِ حُلَّةٍ *** وعهدُ الشَّبابِ الغَضِّ فِي خَيْرِ مَعْهَدِ

مَضَتْ نَوْمةُ التَّعريسِ في ظِلِّ أَمْنِهِ *** وأَعقَبَها لَيْلُ السَّليمِ المُسَهَّدِ

في هذا المشهد الشعري، التصويري، يدور الشاعر فلك الاغتراب النفسي، والمكاني، في آن واحدٍ، إذ يُصارعُ الكبت والضنك، والعهد، نتيجة الانفعالات، واستعماله لعناصر الاغترابية، وهذا المشهد قائم على توظيف تلك العناصر باستعمال مفردات توثيقية، وهي (حنان، التوقد، سود الليالي، المشرد، ممرد، يبكي، الشباب الغض)، إذ يهدف هذه الاستعمالات إلى بث روح المعاناة، والارهاق، وكثرة الهموم، والوجع، والاغتراب، حتى أن الهوى العذري حلَّ في غير محلَّه، والشباب يجري في غيره وهو إنَّ مثل هذا اللَّمح الفتى الذي اتخذ من المفرد: (محل الهوى)، و (عهد الشباب)، إيماءة إلى الاغتراب.وكذلك نرى أنه يَتَشَوقُ إلى الموصل ونواحيها وَهُوَ غَائِبٌ عنها، ويظهر في أبياته التالية شجونه إلى هذه المدينة النفيسة، فيقول [من الكامل] :[35]

يا دَيرَ يُوسُفَ عَدَتْكَ تَحِيَّةٌ *** لِلْمُزْنِ بَيْنَ رَواعِدٍ وبَوارِقِ

غَراءُ ضَاحِكَةُ إِلَيْكَ ثُغُورُها *** ضَحِكَ الحَبيبِ إلى المُحبِّ الوامِقِ

سَقْياً لِتِلْكَ مَنازِلاً مَعْمُورَةً *** مِنْ كُلِّ مَطْروقِ الفِناءِ وطَارِقِ

حُمْرَ القَواعِدِ والقِبابِ كأَنَّما *** أَشْرِبْنَ رَقْراقَ الخَلُوقِ الرَّائِقِ

يَلْقاكَ مِنْ نُوَّارِها وَغُيومِها *** ما بَيْنَ دُكْنِ مَطَارِفٍ وَنَمَارِقِ

والهَيْكَلُ المُبيضُّ يَلْمَعُ وسْطَها *** كالأُقْحُوانَةِ فِي بِسَاطِ شَقَائِقِ

كمْ دُمْيَةٍ خَرساءَ فِيهِ وَدُمْيَةٍ *** فَضَلَتْ عَليها باللّسانِ النّاطِقِ

مِنْ كُلِّ أَهْيَفَ تَاجُهُ مِنْ شَعْرِهِ *** فَكَأَنَّما هوَ شَارِقٌ في غَاسِقٍ

ومُهَفْهَفٍ لَوْ كُنْتُ أَملِكُ أَمْرَهُ *** بَدَّلْتُ سُحْمَ مُسُوحِهِ بِقَراطِقٍ

كمْ قَدْ رَمَقْتُ بِهِ الْمُنَى فَغَشِيتُها *** ما بَيْنَ مَرمُوقِ الجَمالِ ورَامِقِ

في هذه الأبيات الشعرية جاء الشاعر بالاضطرابات الاغترابية _هنا_ تجري في مجرى اعتبارات نفسية ومكانية، غير ناسٍ التقنية التي توافق التجربة الشعرية، ومثل هذا الاغتراب، قادر على حد البعض وتعزيز الايراد، فمجرد حضور (دير يوسف) و (منازلاً) اتكأ الشاعر على الاغتراب.إنَّ تدرَّج القلق النفسي في مثل هذه المرتكزات الفنية، تعيد للوصل إلى الاغتراب المكاني، لتتعاقل مع (الغربة)، وفي هذا علَّة لاغترّاب، وهذه الصورة المشهدية تفضي إلى الحنين، وانخراط الاماني، واستقرار القلق النفسي. وفي نصّ آخرٍ نرى الطابع النفسي عند السري الرفاء بقوله [من الطويل]:[36]

غُذِيتُ بِهِ طِفْلًا وَإِنْ رُمْتُ تَرْكَهُ *** تأَبَّى وأَغرتنِي بِهِ أَلْفَةُ المَهْدِ

علَى أَنَني أَقضِي الحُقوقَ بِنِيَّةٍ *** وأَبذُلُ فِي رَعْيِ الذِّمَامِ لَهُمْ جَهْدِي

وَيَخْدُمُهُمْ قَلْبِي وَسِرّي وَمَنْطِقِي *** فَأَبْلُغُ أَقْصَى غَايَةِ الْقُرْبِ فِي بُعْدِي

جاء الشاعر في هذه النصوص الشعرية بالاغتراب والافتراق والتودد، مجموعة متلازمة تُشكّلُ الصدور الشعرية التي وردتْ في النصّ، وهي تفضي إلى القول: أبلغ أقص غاية القرب في بعدي، بمعنى آخر أشعار الافتراق الوحي المفروض، يعطي الاغتراب والافتراق، وفي هذا همٌّ فرديٌّ عظيم، غير أن الشاعر استطاع أنْ يقرنه بهم فردي، ونزف جمعي، ووجع مُرَّ، من خلال إيراد (زمن تركه)، في إشارة إلى (الاغتراب)، وما هذه الجمل الدالة الإشارة تومضُ أملاً، وتفتح باباً لمغادرة الوجع والنزف.وتدور عجلة الاغتراب في نصّ عندما كان في مدينة حلب، إذ نراه يجدّد الشوق والحنين، يقول [من الكامل]:[37]

أَمَحلَّ صَبْوتِنا دُعاءَ مَشُوقِ *** يَرتاحُ مِنكِ إِلى الهَوَى المؤمُوقِ

هلْ أَطرُقَنَّ العُمرَ بينَ عِصَابَةٍ *** سَلَكُوا إِلى اللَّذاتِ كُلَّ طَرِيقِ؟

أمْ هَلْ أَرَى القَصْرَ المُنِيفَ مُعَمَّما *** بِرداءِ غَيْمٍ كالرِّداءِ رَقِيقِ؟

وقَلالِيَ الدَّيرِ الَّتِي لولا النَّوَى *** لمْ أَرْمِها بِقِلَىً ولا بِعُقُوقِ

مُحمَّرَةَ الجُدْرانِ يَنْفَحُ طِيبُها *** فكأَنَّها مَبْنِيَّةٌ بِخَلُوقِ

دَهْرُ تَرَفْقَ بي فُواقاً صَرْفُه *** وَسَطا عليَّ فكانَ غَيْرَ رَفِيقِ

فَمَتَى أَزورُ قِبَابَ مُشْرِفَةِ الذُّرَا *** فأَرودُ بيْنَ النَسْرِ والعَيُّوقِ

وَأَرى الصَّوامِعَ في غَوارِبِ أَكْمِها *** مِثْلَ الهَوادِجِ في غَوارِب نُوقِ

إنَّ من خلال النصوص السابقة يظهر الاغتراب جلياً عند الشاعر السري الرفاء، فهو يصف شوقه لمدينه الموصل مرّة، وتارةً أخرى يحن للأصدقاء الذين كانوا معه في مرقد الصبا...، فنفسية الشاعر واضحة أنَّه يحمل في طيات أبياته الشعرية شوقاً يملئه الشجون والحزن المتشبع في نفسيته، ولعلَّ إيراد مثل هذا الاغتراب، يتّسقُ مع حالة الشاعر وتجربته وقناعته.فاستطاع الشاعر من خلال النصوص الشعرية المشتملة على معاني الاغتراب من توظيف كافة الصور الفنية والارهاصات النفسية المكبوتة ومظاهر الموسيقى الداخلية والخارجية في خدمة معاني الاغتراب.

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث توصلت إلى بعض النتائج، وهي:

1. إنَّ معنى الاغتراب لم يخرج في دلالته عن دائرة البعد والنزوح عن الوطن، فهي دلت على الغربة المكانية أو الجغرافية هذا من جهة، ومن جهة أخرى دلت على الغربة الاجتماعية كزواج الرجل من غير أقاربه فهذه تدل على غربة الأهل والاشتياق لهم.

2. الاغتراب عند الاصطلاحيين فيعتبرونه لصيق ومزامن بالفرد، وهذا ما يخلف ذلك الشعور بالرفض، وكذلك عدم الرضا الذي قد يعيشه الفرد ويقف عنده في علاقته بمجتمعه.

3. إنَّ الغربة تكون لأسباب قاهرة، وأسباب خارجية ترتبط في الأعم الأغلب بمعايشة لمكان غريب، أو بعدم التكيف الاجتماعي والنفسي مع المجتمع الذي يعيش فيه، بينما يكون الاغتراب فيقع بإرادة الإنسان واختياره طوعاً لا كرها.

4. المنهج النفسي يشير إلى أنَّ الوعي ليس فقط الجزء المرئي، ولكنه أيضا الجزء غير المرئي، فالإنسان لا يمثله وجود مادي فقط، بل إنَّ لديه عالم داخلي يتجاوز في تأثيراته ما يحدثه هيكله الخارجي.

.5 جاءت معظم أبياته واضح جلياً الاغتراب النفسي فيها، وهذا يظهر من خلال الشوق إلى مدينته الموصل.

هوامش البحث

[1]) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د. ط. ت): ٤/٤١٠.

[2]) شعر الكميت بن زيد الأسدي، داود سلوم، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٩م: ١/٨٥.

[3]) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م: ٤/٤٢١.

[4]) مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ _ ١٩٩٩م: ١/ ٢٢٥، مادة: (غ ر ب).

[5]) م، ن: ١/٢٢٥.

[6]) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ: ١/٦٣٩.

[7]) ينظر: م، ن: ١/٦٤٠.

[8]) الاغتراب في شعر محمد الماغوط، رمضان حينوني، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان_ الأردن، ط١، ٢٠١٥م: ٢٢.

[9]) ينظر: الاغتراب_ التمرد قلق المستقلب، إقبال محمد رشيد صالح الحمداني، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان_ الأردن، ط١، ٢٠١١م: ٨٥، والاغتراب في الشعر العراقي، محمد راضي جعفر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م: ص ١.

[10]) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي الرومنسي، محمد الهادي بوطارن، دار الكتاب الحديث، بيروت، ٢٠١٠م: ٤٧.

[11]) الاغتراب في الشعر الإسلامي المعاصر، فريد أمعضشو، بدون دار، ط١، ٢٠١٥م: ١٣.

[12]) ينظر: الاغتراب عند كارل ماركس، وابل نعيمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٣٤م: ٥٩.

[13]) ينظر: ابن باجة وفلسفة الاغتراب، محمد إبراهيم الفيومي، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٨٢.

[14]) ينظر: الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق خشروم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢: ١٢.

[15]) الاغتراب في الفكر الماركسي، د. شاكر نوري، مجلة الثقافة، بغداد ، ١٩٨٣م، العدد٦، ص٥٥.

[16]) الغربة والاغتراب والشعر، عبده بدوي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م: ٨_٩.

[17]) ينظر: المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ٢/٦٦٩.

[18]) ينظر: م، ن: ٢/٥٦٦٩.

[19]) Ismet Emre, 2005: 293. , Edebiyat ve psikoloji_ Ani Yayinlari_ Ankara ((

[20]) ينظر: الذات غير المكتشفة، كارل غوستاف يونج، ترجمة: نهاد خياطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٦م: ١٠٨.

[21]) التحليل النفسي للأدب، جان بيلمان نوبل، ترجمة: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م: ١١.

[22]) ينظر: التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م: ١_٣.

[23]) ينظر: جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، جاك لاكان، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المشروع القومي للترجمة_ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م: ٢٢_٢٥.

[24]) ينظر: م، ن: ٢٢_٢٥.

[25]) التحليل النفسي للأدب، جان بيلمان نوبل: ٩.

[26]) ينظر: جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، جاك لاكان: ٢٤٧.

[27]) ينظر: علم النفس التحليلي والفن، سيجموند فرويد، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م: ٧٢.

[28]) علم النفس التحليلي، كارل يونج، ترجمة: نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط٢، ١٩٩٧م: ١٥٦.

[29]) ينظر: كيف نقرأ الأدب، تيري إيغلتون، ترجمة: د. محمود درويش، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٣م: ١٥٩.

[30]) م، ن: ١٥٩.

[31]) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمن، ترجمة: د. إحسان عباس، د. محمد نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨م: ٢٥٦.

[32]) ينظر: معالم الأدب التركي الحديث، كنعان أقيوز، ترجمة: محمد هريدي، عزه الصاوى، القاهرة، ١٩٨٢م: ١٩٥.

[33]) ديوان السري الرفاء، تحقيق: الدكتور حبيب الحسني: ٥٣/٢.

[34]) ديوانه: ٢/ ١٣٧ .

[35]) ديوانه: ٢/ ٤٥٥.

[36]) ديوانه: ٧٩٣/٢.

[37]) ديوانه: ٢/ ٤٧٣_٤٧٤.